في مدينة السلام

بين المتنبي والحاتمي

« ولما قدم أبو الطيب — من مصر — بغداد ، وترفع عن مدح المهلبي الوزير ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك ، شق ذلك على المهلبي ، فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه وتباروا في هجائه وفيهم ابن الحجاج ، وابن سكرة الهاشمي ، والحاتمي وأسمعوه ما يكره ، وتماجنوا به وتنادروا عليه ، فلم يجبهم ولم يفكر فيهم(١) » « الثعالبي »

تمهيد

ورد المتنبي مدينة السلام بعد أن روعته التجارب القاسية ولقي ما لقي من عنت الزمان وتقلبات الايام ومعاداة الرجال ، ولقد ترك سيف الدولة الذي كان يقول فيه :

أسير الى اقطاعه ، في ثيابه ، على طرفه ، من داره ، بحسامه

وحسب أنه قد أمن كيد الحساد — بعد أن ترك سيف الدولة — فاذا به يرى حيثما ذهب — حساداً ومنافسين ومتطوعين لإيذائه والزراية عليه والكيد له . فقد لقي أمامه في بلاط كافور — بدل ابي فراس وابن خالويه — ابن حنزابة وزير كافور [٢] وهو من تعرف مكانة وخطراً ، ثم هرب من مصر — بعد أن هرب من حلب فراراً من انتقام كافور ووزيره وهجاها بعد ذلك أشنع هجاء . فمن ذلك قوله من مقصورته :

« وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطي [٣] من اهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا

---

(١) وروي أنه سئل في ذلك فقال : اني فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم ارفع طبقة منهم من الشعراء :

« أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا »

وقولي : « أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عادل وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبي فيهم ، غير أنني بغيض الي الجاهل المتعاقل »

وقولي : « واذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل »

(٢) هو ابو الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة (٣) يعني ابن حنزابه

واسود [١] مشفره نصفه يقال له: «أنت بدر الدجى» [٢]

وقد شعر المتنبي بخطئه وظهرت حسرته اللاذعة، بعد أن خيب كافور آماله، وتجلى ذلك في قوله :

« وفارقت خير الناس قاصد شرهم وأكرمهم طراً لألأمهم طرّا
فعاقبني المخصي ، بالغدر جازياً لأن رحيلي كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا فائل الرأي ، لم اعن بحزم ولا استصحبت في وجهتي حِجْرا »

فلما ورد مدينة السلام ضوعفت خيبته ويأسه ، ورأى من الخصومة والأحقاد ما لم يكن في حسبانه ، ووجد أمامه خصماً عظيم الخطر عنيف الخصومة واللدد . فقد بلي بخصومة المهلبي ، بعد أن نجا من خصومة ابن حنزابه ، وكلاهما وزير نافذ الكلمة لا يستهان بعداوته وغضبه

وكان السبب في هذه العداوة — كما أسلفنا — هو ترفع المتنبي عن مدح المهلبي ، فأغرى به الشعراء وأثارهم عليه . وهكذا فر المتنبي من مصر إلى مدينة السلام وهو يحسب انه قد أصبح بمأمن من المنافسة والحسد ، فاذا هو في بلد الخصومة واللدد ، وإذا الوزير المهلبي ساخط عليه يغري الشعراء بشتمه ويوعز إلى الأدباء بتنقص قدره ، وإذا معز الدولة — سيد بغداد ومولاها — حانق عليه ، وإذا الأذناب يتلمسون أرضاء سادتهم بكل وسيلة ويتهافتون على ذم عدوهم وثلبه بكل أسلوب

وإذا بنا نرى الحاتمي [٣] — بطل هذه المناظرة — يحتال جاهداً للقاء المتنبي وارواء غلته ، ويتلمس مناظرته ، فإذا أعجزه ذلك ذهب اليه في بيته ، لا ليناظره أو يناقشه ، بل ليشتمه ويلعنه ويسفهه ، ثم يعود الى سادته زاعماً أنه قهر خصمهم اللدود وأربى على الغاية في تحقيره وتصغير شأنه . ورحم الله علقمة إذ يقول :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلَّب

كيف كانت المناظرة

ليس لدينا الآن مصدر واحد نستقي منه أخبار هذه المناظرة وهو ما كتبه الحاتمي نفسه عنها ، وليس هذا بالمصدر الثقة الذي يؤخذ به ويعول عليه وتؤخذ دعاواه قضايا مسلمة ، لأنه كالمصدر الذي استقينا منه رواية المناظرة التي حدثت بين الهمذاني والخوارزمي — رواية خصم عن خصمه !

(١) يعني كافور الاخشيدي (٢) قالوا : وكان المتنبي قد مدح ابن حنزابة بقصيدته التي أولها : «باد هواك ، صبرت أم لم تصبرا» وجعلها موسومة باسمه لتكون احدى قوافيها «جعفرا» ، وفيها قوله :

صغت السوار لاي كف بشرت بابن الفرات ، واي عبد كبرا

قالوا : « فلما لم يرضه صرفها عنه ولم ينشده اياها ، ثم مدح بها ابن العميد »

(٣) هو ابو علي محمد بن الحسن المظفر المعروف بالحاتمي وهو كاتب لغوي

على أن الحاتمي يناقض نفسه — في روايته — أكثر من مرة ، فهو يحاول أن يقنعنا بأن كبرياء المتنبي عليه هي التي حملته على شتمه ، بينما يروي لنا أنه لم يذهب الى المتنبي ولم يشتمه الا إرضاء للوزير المهلبي ومعز الدولة معاً . وهو يعيّر المتنبي بأنه قابله بلباس فاخر بينما يفخر عليه بأن له بغلة فاخرة وعبيداً وغلماناً الخ

وهو يملأ رسالته بالاسجاع الفاترة ويكيل لنفسه المديح كيلا ويذهب في الغرور الى أبعد مما ذهب اليه المتنبي ، حتى ليذكرنا بقول ابن الرومي :

عذرنا النحل في إبداء شوك يذود به الأنامل عن جناه
فما للوسج الملعون أضحى له شوك ، بلا ثمر نراه

فإننا — إذا استطعنا أن نسيغ غرور المتنبي ، لم نستطع — بحال ما — أن نسيغ غرور هذا المادح المتاجب بنفسه

ورواية الحاتمي ، على ما فيها من التناقض ، تكاد تكون لنا فيها من الاغراق مستحيلة الوقوع . فهو يزعم لنا أنه هزم المتنبي ، على طول الخط ، إن صح هذا التعبير ، وأن المتنبي لم يوفق في رد واحد يفند به مزعماً واحداً من مزاعمه ، وأنه كان لا ينشده بيتاً من غرره الا زيّفه الحاتمي ورده الى أصله واستشهد بشعر من سبقوا المتنبي الى معناه

ونحن إذا صدقنا ما يرويه لنا الحاتمي من أنه ذكر للمتنبي كثيراً من سقطاته ومرذول شعره ، لم نستطع بعد ذلك أن نصدق بقية ما يرويه لنا من أنه زيف كل ما استشهد به المتنبي — بعد ذلك — من غرره ، ورده الى مصادره ارتجالاً . وما كان اجدر الحاتمي أن يصدقنا القول ، فيقرر لنا أنه كتب رسالته هذه في نقد المتنبي وأنفق في كتابتها زهرة شبابه ، بدل أن يزعم لنا انه ارتجلها في جلسة واحدة . وهذه الدعوى تذكرنا بما يزعمه لنا بعض زعماء الشعر في عصرنا من انه يرتجل كل قصائده ، وبعضها يبلغ مائتي بيت أحياناً . ولو صح زعمه لرأينا له ولو قصيدة واحدة غير مرتجلة تفوق كل هذه القصائد

الرسالة الحاتمية

وإنك لترى حقده وغيظه على المتنبي واضحين في قوله من رسالته [1] :

« لما ورد أحمد بن الحسين المتنبي مدينة السلام — منصرفاً عن مصر ومتعرضاً للوزير أبي محمد المهلبي ، التحف رداء الكبر وأذال ذيول التيه ، ونأى بجانبه استكباراً وثنى عطفه جبرية وازوراراً » قال : « فكان لا يلاقي احداً إلا أعرض عنه تيهاً وزخرف القول عليه تمويهاً ، تخيل عجباً إليه أن الأدب مقصور عليه وان الشعر لم يرد غير مائه غيره ، وروض

(١) اسمها الرسالة الحاتمية ، أو الرسالة الموضحة كما سماها الحاتمي نفسه

لم يجن نواره سواه فهو يجني جناه ويقطف قطوفه دون من تعاطاه » الى أن قال :

« وساء معز الدولة « أحمد بن بويه » المقدم ذكره — وقد صوّرت حاله — أن يرد حضرته وهي دار الخلافة ومستقر المزويضة الملك — رجل صدر عن حضرة عدوّه سيف الدولة بن حمدان ، وكان عدوًّا مبايناً لمعز الدولة — فلا يلقى أحداً بمملكته يساويه في صناعته ، وهو ذو النفس الأبية والعزمة الكردية والهمة التي لو همت بالدهر لما تصرفت بالأحرار صروفه ولا دارت عليهم دوائره » ثم قال :

« وتخيل الوزير المهلبي — رجماً بالغيب — أن أحداً لا يستطيع مساجلته ولا يرى نفسه كفوءاً له ولا يضطلع بأعبائه فضلاً عن التعلق بشيء من معانيه . وللرؤساء مذاهب في تعظيم من يعظمونهُ وتفخيم من يفخمونهُ وتكرمة من يراعونهُ ويكرمونهُ ، وربما التبس الحال وأوشكوا عن هذه الخليقة الانتقال ، وتلك صورة الوزير المهلبي في عوده عن رأيه هذا فيه »

هكذا يصور لنا الحاتمي أنهُ هتك ستر المتنبي وأبان ضعفه وأفهم الوزير المهلبي أن المتنبي لا قيمة له ولا خطر ، وأنهم أكبروا من شأنه وهو صغير ، ونبهوه وهو ضئيل حقير ، « وأنهُ — كما يقول الحاتمي في رسالته — لم يكن فيه مزية يتميز بها عن الهجين الجذع من ابناء الأدب ، فضلاً عن العتيق القارح إلاّ الشعر » الى ان يقول :

« تتبعت له متتبعاً عواره ومقلماً أظفاره ومذيعاً أسراره ، وناشراً مطاويه »

ألا ترى الى هذا الجبار القادر كيف قلم اظفار المتنبي واذاع اسراره وتتبع عواره ؟

ثم يقول في رسالته انهُ كان متعبناً أن تجمعها دار يشار الى ربها ليجريا — معاً — في مضمار يعرف به السابق من المسبوق واللاحق من المقصر عن اللحوق

وهذا يذكرنا بما فعله بديع الزمان الهمذاني من التحكك بالخوارزمي [1] رغبةً في الظهور عليه لما في ذلك من التنويه به ثم يقول لنا متمدحاً بفضائله وسجاياه الباهرة — : « وكنت — إذ ذاك — ذا سحاب مدرار وزند في كل فضيلة وار ، وطبع يناسب العقار إذا وشيت بالحباب ووشت بها سائر الأكواب » ألا تصدق الآن أن هذا النابغة الفذ ، يغلب المتنبي ، بعد أن حدثك عن نفسه بأنهُ كان ذا سحاب مدرار وزند في كل فضيلة وار ؟ »

لم في كل فضيلة من الفضائل قاطبة !

ثم يقول لنا في رسالته : « هذا وغدير الصبا صاف ، ورداؤه ضاف ، وديباجة العيش غضة وأرواحه معتلة وغمائمه منهلة ، والشبيبة شرة الخ »

ولعلك ترى من ذلك أنهُ لم يكتب هذه القصة إلا بعد زمن طويل ، وبعد أن مات

(١) ارجع الى مقتطف يوليو ١٩٢٩ صفحة ١٥٥

المتنبي . فقد حدثت هذه المناظرة حوالي عام ٣٥١ هـ . ومات المتنبي سنة ٣٥٤ ، وليس هذا بالزمن الذي ينتقل فيه الحاتمي من عهد الصبا إلى عهد الكهولة أو الشيخوخة

ثم يحدثنا الحاتمي أنه — بعد أن أخفق في مقابلة المتنبي — ذهب الى بيته ليفرغ جعبة أحقاده ويشفي حزازات نفسه فيقول : حتى إذا عدت على اجتماعنا عوادٍ من الأيام قصدت مستقره ، وتحتي بغلة شَفْوَاء(١) تنظر عن عيني بازٍ ، وتتشوف بمثل قادمتي نسر ، وهي مركب رائع ، وكأني كوكب وقاد من تحته غمامة يقتادها زمام الجنوب ، وبين يدي عدة من الغلمان يتهافتون تهافت فريد الدر عن اسلاكه »

ولما انتهى من المباهاة والادلال ببغلته الشَّفْواء التي تنظر عن عيني باز وتتشوف بمثل قادمتي نسر ، وأنبأنا بأنها مركب رائع وانه كان عليها كالكوكب الوقاد من تحته غمامة يقتادها زمام الجنوب وهكذا الى آخر هذه الأوصاف المضحكة ، بدأ يقص علينا متعجباً دهشاً كيف رأى المتنبي هذه العظمة ولم ينخلع لها قلبه ويطير لها شعاعاً ؟ قال :

«ولم أورد هذا متعجباً ولا متكثراً بذكره ، بل ذكرته لأن أبا الطيب شاهد جميعه ، في الحال ، ولم ترعه روعته ولا استعطفه زبرجه ، ولا زاده إلا عجباً بنفسه واعراضاً عني بوجهه »

وقد كان المتنبي جديراً — بعد أن رأى هذه الأبهة وتلك العظمة أن ينحني إجلالاً لصاحبها وتعظيماً لشأنه ، ولكنه لكبريائه لم يفعل . بل أشاح بوجهه عنه كما يقول الحاتمي ، ونهض من مجلسه — حين استؤذن له عليه — ودخل بيتاً إلى جانبه ، ونزل الحاتمي عن بغلته — كما يقول — والمتنبي يراه ، ودخل الى مكانه ، فلما خرج المتنبي نهض اليه . قال الحاتمي :

«فوفيته بحق السلام غير مشاح له في ذلك ؛ وكان سبب قيامه من مجلسه لئلا يقوم لي عند موافاتي » وهكذا يظل يقص علينا الحاتمي هذه التفاصيل التافهة حتى يضجرنا بها إضجاراً ، ثم يقول :

« ولبس سبع أقبية ملونة — وكان الوقت أحر ما يكون من الصيف وأحق بتخفيف اللبس »

وإذا صح قول الحاتمي كان دليلاً إما على سخف المتنبي في العناية بمثل هذه الاشياء التافهة ، أو على رغبته في أن يكيل له بنفس الصاع ويظهر له انه — في ذلك أيضاً — لا يقل عنه ، ولكل مقام مقال ، ولكل قوم اسلوب بينه لا يفهمون إلا به !

ثم يشكو الحاتمي من اعراض المتنبي عنه إذ كان — كما يقول — لا يعيره طرفه ولا يكلمه حرفاً .

قال الحاتمي : « وكدت اتميز غيظاً ، واقبلت أسخف رأيي في قصده واعاتب نفسي في التوجه الى مثله ، وهو مقبل على تكبره ، ملتفت الى الجماعة التي بين يديه ، وكل واحد منهم يومئ اليه ويوحي بطرفه ويشير إلى مكاني ويوقظه من سنة جهله ، فما يزداد إلا ازوراراً ونفاراً ، جرياً على شاكلة خلقه » (لها بقية) كامل كيلاني

(١) سريعة المراكض